الواقعية السياسية في العهد النبوي وأثرها في نجاح الدعوة وحفظ الجماعة

د. خالد أحمد عجلان

أستاذ الثقافة الاسلامية المساعد - جامعة العلوم والتكنولوجيا سابقا

khaled-aglan2@gmail.com

الملخص

5

تتطلب الأحداث المتتالية التي نعيشها في الزمن الراهن، وما تفضي إليه من نتائج، بحثا مستمرا عن أنجح السبل والوسائل للتعامل معها، ضمانا لتحقيق الهدف، وحفظا لأمن المجتمع وسلامته، وغالبا ما تتوجه الأنظار نحو المناهج والتجارب الناجحة التي تكون محل القدوة ومصدر التشريع في هذا المجال.

ولأن حقبة العهد النبوي تمثل عهد التشريع الإسلامي؛ فهي أهم مراحل التاريخ الإسلامي –بل والإنساني–، ففترة ذلك العهد –الثلاثة والعشرون عاما– حددت المعالم الرئيسية للتاريخ الإنساني اللاحق إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، وأرست أسس إدارة العلاقات مع الغير، كما أسست لملامح تحالفات المستقبل وصراعاته.

وفي فهم سياسية ذلك العهد ومنهجيته ما يفيد في فهم طبيعة صراع اليوم، وآليات التعامل معه؛ فالحوادث التاريخية الصحيحة في سيرة النبي ﷺ تمثل مخزوناً معرفياً كبيرا لكل باحث.

وقد تناول البحث بطريقة الاستقراء والتحليل مظاهر واقعية السياسة في عهد النبي ﷺ وثمارها في نجاح الدعوة، وتوصل الباحث إلى أن منهجية النبي ﷺ في تعامله مع الواقع كانت مدروسة وحكيمة، راعى فيها طبيعة وظروف البيئة المحيطة في تلك الفترة، وهو ما يفرض على العاملين لدينهم والنهوض بأمتهم أن يستوعبوا تلك المنهجية، فيحولونها إلى نظريات دراسية، وبرامج تطبيقية لتحقيق ما ينشدونه من أهداف.

Political Realism of Prophetic Age and its Impact on Mission Success and Collective Preservance

Dr. Khaled Ahmed Ajlan
Professor of Sharia Politics

Abstract:

The continues events which we live in and it is result requires continues research for the most successful ways and tools to deal with it in order to ensure the goal and save the safety and security of society, Often, the attention is drawn to successful methodology and experiences that are the guide and source of legislation in the area. The period of the Prophet Mohammed (peace and blessings of Allaah be upon him) covenant is one of the most important stages of Islamic history, and even humanitarian because it is the period of Islamic legislation, during of this period - the twenty-three years - defined the main features of the subsequent human history until God inherits the earth and from it, the period also established the foundations of the relations with Others, and established the features of future alliances and conflicts. The understanding of the policy of this covenant and its methodology is useful in understanding of the nature of today's conflict and the mechanisms of dealing with it. The correct historical events of the Prophet Muhammad (PBAUH)[1] represents a large reservoir of knowledge for each researcher. This research dealt with the method of extrapolating manifestations of political realism in the period of the Prophet Muhammad(PBAUH) and its role in the success of the call. The researcher concluded that the methodology of the Prophet Muhammad (PBAUH) in dealing with the reality was thoughtful and prudent sponsor of the circumstance in this period. This is what necessitates the workers of their religion and the advancement of their nation to understand this for transforming into study theories and applied programs that facilitate access to their desired goals.

[1] – PBAUH: peace and blessings of Allaah be upon him

المقدمة:

الحمد لله رب العالمين، القائل:﴿ وكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ {البقرة: 143}، والصلاة والسلام على رسوله الأمين الذي وصفه رب العزة بقوله: ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾{التوبة: 128} وعلى آله وصحبه أجمعين.

وبعد،،

تتكرر التجارب الإنسانية بتوالي دورة الزمن، وتتابع الأجيال، ويبقى التدافع سمة بشرية على مر العصور، تدافع مصالح وتدافع قيم، تدافع المصالح تحكمه معايير نفعية آنية، وتدافع القيم –وهو التدافع الحتمي بين قوى الخير والشر– تحكمه قيم ومثل عليا، لأنه يدور بين هيمنة نزوات الباطل وبين قيم الحق، ويدور مع دورة الحياة وسيرها، ما دام هناك بشر يمشون على وجه البسيطة.

وعلى مر العصور والأزمنة ظهرت جماعات وطوائف، وتشكّلت مذاهب واتجاهات، خاضت جميعها سنة التدافع الحتمي في هذا الحياة، **{وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ (118) إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ }**[هود: 118–119]، تدافع تحكمه جملة من السنن، النجاح فيها حليف لمن أخذ بها واستفاد من قوانينها، ولذلك وُئدت كثير من الدعوات والمذاهب والمكونات وهي في مهدها وحُصدت قبل يناعها، التي عارضت تلك السنن والقوانين، ولم يكتب البقاء سوى للأصلح في سيره وخططه وأدائه.

ولطالما تصدر مشهد التدافع البشري عبر التاريخ اللافتة السياسية، حتى في صراع الأنبياء عليهم السلام مع أقوامهم، فلم يكن مع عوام الناس وبسطائهم؛ بل كان مع قوى التسلّط والتأله في الأرض من حكام الأمم وملأهم، الذين استخدموا العوام وقودا لصراعهم مع أنبياء الله وحملة الرسالة–!.

وفي نموذج دعوة النبي محمد ﷺ كان تدافعه مع قوى التسلط وكياناتها وثقافاتها وليس مع مجرد أفراد وحسب.

وشواهد السيرة النبوية تربط بين الإيمان بالدعوة وبين الشرعية السياسية، فإقراره للولاة على ما هم عليه، بعد إسلامهم، وللقبائل على ما تحت يدها، وإرسال الرسل والرسائل للملوك، وبعث الوفود إليهم،

كلها تدل على أن النبي ﷺ ربط بين الإيمان بالإسلام وبين كونه رئيساً للدولة، فلو لم يمتلك الشرعية السياسية بمجرد الإيمان لما صح له الأمر والنهي فيما يتعلق بقضايا الحكم وتدبير شؤونه.

كما أنه من المستبعد عقلاً أن يفصل بين المفهوم الدعوي الباني للجماعة وبين الفعل السياسي المعزز لحفظ الجماعة وتدعيم بناء كيانها، فحين كان ﷺ يلتقي بالقبائل داعيا لهم إلى الإسلام وحمايته، أو حين يأمر المسلمين في مكة بالهجرة إلى الحبشة ثم الهجرة إلى المدينة، لم يكن ذلك إلا فعلٌ جامع بين سياسية الدعوة ودعوية السياسة، أو سياسة الواقع وواقعية السياسة.

وقد تجلت صورة التدافع السنني في منهجيته ﷺ الدعوية، فهو وإن كان يحمل مشروع الحق الذي أراده الله، إلا أنه كان أخّاذا بالسنن سبّاقا إليها، فكان النجاح حليفه صلى الله عليه وسلم، كما أفضت جولات الصراع بين دعوته وبين أهل الباطل إلى تحولات جذرية في المنطقة والعالم بأسره، تداخل في ذلك التحول الدعوي بالسياسي في النتيجة والمآل.

ولأن النبي ﷺ قدوة لأمته وأسوتهم الحسنة، فدراسة منهجه والسير على منوالها مظنة الفوز والفلاح المأمول في الدنيا والآخرة، قال تعالى: { **لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا** }[الأحزاب:21].

مشكلة الدراسة: تتلخص مشكلة الدراسة في الإجابة عن السؤالين التاليين:

كيف أسهمت واقعية التعامل السياسي في العهد النبوي في نجاح الدعوة وحماية الجماعة المسلمة؟

وكيفية استفادة رواد حركات الدعوة والنهوض الحضاري منها في تحقيق أهدافهم، وتقليل آثار ومخاطر التدافع الحتمي مع قوى الباطل؟

أهداف الدراسة: تتركز أهداف الدراسة فيما يأتي:

1- بيان جانب الواقعية في منهجية النبي ﷺ في التعامل مع الآخرين في مسيرته الدعوية.

2- ذكر أهم النتائج المترتبة على تلك الواقعية، وكيف أسهمت في نجاح الدعوة وقيام دولة الإسلام.

3- سبل الإفادة من تجربة المشرّع الحكيم والقائد الأول محمد ﷺ في واقع الحياة اليوم.

الدراسات السابقة: لم أقف على من تناول موضوع الواقعية السياسية بشكل مباشر أو مستقل، لكن هناك بعض الباحثين تناولوا أساليب النبي ﷺ في الدعوة وحمايتها، أطلعت على جملة منها، وأفدت من مادتها، ومما وقفت عليه:

1- منهج النبي ﷺ في حماية الدعوة والحفاظ على منجزاتها خلال الفترة المكية، الطيب برغوث،

تحدث الكاتب في هذه الدراسة عن منهجية النبي في حماية الدعوة وكيفية المحافظة على مكتسباتها.

2- مواقف النبي ﷺ في الدعوة إلى الله تعالى، د.سعيد بن علي بن وهف القحطاني، تناول فيه جملة من مواقف النبي وصور صبره وتضحيته.

3- المعارضة السياسية للنبي في العهدين المكي والمدني، ياسر الراشدي، دراسة نشرت بمجلة البحوث والدراسات الإسلامية، العدد44، تحدث فيها عن أساليب وطرق معارضة كفار قريش ومنافقي المدينة للنبي عليه السلام، وكيف تعامل النبي معهم؟

والبحوث والدراسات السابقة على أهميتها فقد تناولت عموميات التعامل النبوي في سبيل تبليغ الدعوة ولم تتناول واقعية التعامل النبوي بالبيان وهو ما تتميز الدراسة الحالية كونها متناولة لصور من الواقعية السياسية النبوية التي تدرك طبيعة الواقع وآليات التعامل معه، وكيف أثمرت هذه الواقعية نجاحا مطردا في مسيرة الدعوة مع المحافظة على أفراد الجماعة وصولا إلى تحقق الهدف بتبليغ الدعوة إلى العالمين وقيام دولة الإسلام.

منهجية البحث: سلك الباحث في هذه الدراسة منهج الاستقراء والتحليل، وذلك بتتبع أبرز مواقف السيرة النبوية المتعلقة بالموضوع من مصادرها العلمية في السنة والسيرة النبويتين، واستخلاص أهم ملامح تلك المنهجية ونتائجها التي عادت على الدعوة والجماعة.

الكلمات المفتاحية: وتتناول مفاهيم الألفاظ الواردة في العنوان وهي:

أ- **الواقعية:**الواقعية مصدر صناعي من الفعل وَقَعَ، والواقع "هو ما عليه الشيء بنفسه في ظرفه مع قطع النظر عن إدراك المدركين وتعبير المعبرين"[1].

والوَاقِعِيَّة "مذهبٌ يُلتَزَمُ فيه التصويرُ الأَمينُ لمظاهر الطبيعة والحياة كما هي، وكذلك عرض الآراءِ والأَحداث والظروف والملابسات دون نظر مثالي"[2]. ولم تعرّف اللغةُ العربيةُ مفهوم الواقع بالمفهوم

[1] – خان، 1987م،ج1 /413.

[2] – قاموس المعجم الوسيط –https://www.almaany.com/ar/dict/ar

المجازي الحديث، الذي يحمل دلالة محددة عند سماعِه لدى الإنسان العربي المعاصر؛ لكن مدلولات الفعل "وقع" تفيد المعنى المستخدم حديثا. [1]

وتعريفه الواقع الأقرب إلى مجال بحثنا أنه: ما يحيط بالإنسان والجماعة من حال وعصر، ويؤثِّر فيهما على سبيل التشكيل الراهن ضمن زَمَن مُتَحَرِّك"[2].

والواقعية هنا: هي التعامل الحكيم مع الأحداث والمجتمع، والتأثير فيهما في حدود الفرصة المتاحة، المبنية على طبيعة المجتمع والقوى المؤثرة فيه، بحيث تصبح صيرورة الزمن والحال محددان رئيسيان لطبيعة ذلك التعامل ونوعه.

ب- **السياسية:** ولفظ السياسة لم يرد في القرآن الكريم، ولكن ورد في السنة، في قول النبي ﷺ: "كانت بنو إسرائيل تسوسهم الأنبياء كلما هلك نبي خلفه نبي، وإنه لا نبي بعدي"[3]

ويتمحور معنى السياسة حول القيادة، وتدبير الأمور وإصلاحها، والقيام على أحوال الناس بما يصلحهم.

وقد عُرِّفت بأنها: "القانون الموضوع لرعاية الآداب والمصالح، وانتظام الأحوال"[(4)]، كما عرّفت بأنها: "فن الممكن".

ج- **الجماعة:** هي:" طائفةٌ من النَّاس يَجْمعُها غرضٌ واحدٌ"، والمقصود بالجماعة هنا جماعة الإسلام الذين آمنوا بالنبي عليه السلام وحملوا راية التوحيد، ويشكلون مفهوم الأمة، والأمة: هم الجماعة المؤلفة من أفراد لهم رابطة تضمهم، ووحدة يكونون بها كالأعضاء في بنية الشخص، وسواء أكانت كبيرة أو صغيرة، ويختلف هذا الرابط باختلاف مفهوم الأمة، فأمة الإسلام تربطها عقيدة الإسلام" [5].

---

[1] – ينظر: الجوفان. جميلة بنت محمد "الواقعية، نظرة عن قرب" https://www.alukah.net/literature_language/0/5427

2- المرجع السابق.

3- البخاري. محمد بن إسماعيل. رقم/3455، ومسلم، رقم/.1842

4- المقريزي. أحمد بن علي بن عبد القادر. المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار،3/.338

5- رشد رضا، تفسير المنار. 30/4، وينظر: صافي. لؤي، العقيدة السياسية. ص102.

ج- الدعوة: هي الحث والطلب، والمراد بها هنا الدعوة إلى دين الإسلام ومنهجه القويم.[1]

وعليه: فعنوان البحث هو : مراعاة الهدي النبوي للواقع والظروف المحيطة في التعامل مع الآخرين، وأثر ذلك في نجاح الدعوة إلى تعالى والحفاظ على جماعة المسلمين في زمنه ﷺ.

وقد جاء البحث وفق المحاور الآتية:

أولا: الواقع المحيط بظهور الدعوة في مكة.

ثانيا: صور ومظاهر واقعية السياسة النبوية في العهد المكي.

ثالثا: ثمار واقعية السياسة في المكي.

رابعا: الهجرة النبوية والتحول التاريخي.

خامسا: مظاهر الواقعية السياسية النبوية وثمارها في العهد المدني: ويمكن تفصيل ذلك على النحو التالي:

أولا: الواقع المحيط بالعهد المكي :كانت البشرية بعد رسالة نبي الله عيسى عليه السلام تنحدر من سيئ إلى أسوأ، وبلغت الأمور في القرن السادس وبداية القرن السابع الميلادي مستوىً سيئاً من التردي في مختلف المجالات الدينية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية، ويتلخص المشهد آنذاك على النحو الآتي:

1- أديان سماوية محرفة وديانات بشرية وثنية، الجامع بينها البغي والانحراف عن الحق.
2- استغلال السلطات السياسية للأديان لتحقيق الأطماع الشخصية والتوسعية.
3- عالم متفكك تسوده الحروب والصراعات، ويتحكم فيه قطبا الروم والفرس.
4- تتسم الحروب والصراعات بالوحشية والقسوة سواء كانت حروب دينية أو سياسية.
5- غياب مبادئ الحرية والحكم الرشيد وتخلف النظم الإدارية والمالية في كل الدول آنذاك.
6- الاستبداد والطبقية سيدا الوضع السياسي والاجتماعي.
7- الربا وجباية الأموال والسطو ماكينة الاقتصاد السائد.
8- انتشار الفساد وشيوع الظلم الذين كانا ينخران جسد المجتمعات.

1 - ينظر: جمهر العرب، باب العين والدال.

9- اضطراب المجتمعات وتمزق النسيج الاجتماعي.

وبينما كان العالم يموج في صراعاته المختلفة، كانت جزيرة العرب بعيدة عن تلك الصراعات نسبيا، فهي- بحكم طبيعتها الصحراوية- "لم تكن ذات أهمية كبيرة في ميزان الصراع المادي للقوى المتصارعة آنذاك"[1].

كانت القبائل العربية في عمق الجزيرة منكفئة على نفسها، فلا دولة تجمعها، ولا نظام سياسي واضح المعالم يحكمها، سوى جملة من العادات والأعراف والتقاليد القبلية التي أسهمت في حل جملة من نزاعاتهم وقضاياهم، كما قامت بين هذه القبائل من الحروب البينية ما استنزف رجالها وقدراتها، كحرب البسوس، وداحس والغبراء، وحرب الفجار، والتي استمر البعض منها سنوات عدة[2].

وكان أبرز ملامح الواقع العربي آنذاك بيت الله الحرام في مكة، الذي شكّل أهمية لقبيلة قريش، لكنها أهمية تركزت غالبا في التأثير الروحي الآني، والاستفادة من التبادل التجاري في موسم الحج، ولم ترقى تلك الأهمية إلى التأثير السياسي.

وحين ظهرت دعوة الإسلام في بيئة مكة ذات السلطة الروحية المحدودة، رأها كفار قريش صوتا معارضا يستحق القمع والإخماد، فهم يرون فيما جاء به محمد ﷺ من قيم ومبادئ قاصما لظهر باطلهم التسلطي على حقوق الناس ورقابهم، فلم يدخروا جهدا في محاولة وأدها في المهد، فحاربوها منذ الوهلة الأولى.

قابل ذلك النهج القرشي المفرط في الخصومة، إدراك كامل من حامل منهج التغيير الرباني محمد عليه السلام لطبيعة المجتمع الذي بُعث فيه، وطبيعة النفس البشرية المجبولة على حب الجاه ونزوعها نحو التسلّط؛ فانتهج سياسة حكمية، لم يتجاوز بها حدود الواقع والظروف التي يعيشها، حتى بلغ الغاية.

ثانيا: صور ومظاهر واقعية العهد المكي: اتسمت سياسة العهد المكي بعدد من المظاهر والاستراتيجيات، ومنها:

1- التزام الخط السلمي في الدعوة إلى دين الله تعالى، خط يقوم على الحوار والمجادلة بالتي هي أحسن، عملا بالتوجيه الرباني: {**ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ**

[1] – جواد علي. المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام،140/1.

[2] – كان للكيانات اليهودية في يثرب وخيبر دور ماكر في تغذية الصراعات طمعا في رواج سوق سلاحهم وإضعاف من حولهم حتى لا يلتفت إليهم وإلى مؤامراتهم.

بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ}. [النحل:125]، وشعار ذلك العهد: "يا معشر قريش، اشترُوا أنفسكم، لا أُغني عنكم من الله شيئًا..."[1].

وقد ظل ﷺ طوال ثلاثة عشر عاما بمكة ملتزما نهج السلمية الحكيم –رغم شدة ما واجهه هو وأصحابه من صنوف الإيذاء والتعذيب– الداعية إلى ردّات فعل عنيفة، روى ابن كثير في تفسيره أن عبد الرحمن بن عوف وأصحابًا له أتوا النبي ﷺ بمكة، فقالوا: يا نبي الله، كنا في عِزَّة ونحن مشركون، فلما آمنا صِرنا أذلَّة؟! قال: "إني أُمِرتُ بالعفو، فلا تُقاتِلوا القوم"[2].

كما لم يسمح ﷺ في يوم بيعة العقبة الثانية للثلة الصادقة من شباب الأوس والخزرج الذين بايعوا النبي –على اتباع دين الإسلام ونصرة سيد الأنام– حينما أعلنوا استعدادهم للتضحية في سبيل دعوة الحق: "والله الذي بعثك بالحق: إن شئت لنميلنّ على أهل منى غدا بأسيافنا؟"[3]، فلم يعتبرها القائد الحكيم ﷺ فرصة سانحة، جاءت كما تتمناها النفس البشرية تحت ضغط الواقع وقهر الأيام الخوالي؛ بل كان رده مدركا لأبعاد هذا الفعل المتسرّع، الذي وإن حقق إثخانا في العدو على حين غرة من "قريش"؛ إلا أنه حتما سيكون أداة صدّ عن دين الله تعالى، وربما سببا للقضاء على مشروع الدعوة التي لم يشتدّ عودها بعد، فكان رده حاسما:"لم نؤمر بذلك، ولكن ارجعوا إلى رحالكم".[4]

2- اعتماد آلية العمل السري في تبليغ رسالة الإسلام مطلع الدعوة، فبدأ النبي بدعوة من يثق بهم بشكل فردي، بعيدا عن أعين سلطة قريش، حتى لا يدخل في صدام معهم من بداية دعوته، واستمر على هذه الآلية ثلاث سنوات، والتي تُعد أهم المراحل الدعوية في الإسلام، حيث تمكّن ﷺ خلالها من تكوين الكتلة الصلبة من الرعيل الأول، فكوّن شخصياتهم تكويناً خاصاً يؤهلهم لخوض غمار المراحل التالية، متخذا من دار الأرقم بن أبي الأرقم منطلقا لذلك، فتخرج منها عظماء الإسلام ورواحل الدعوة، الذين حملوا رايتها إلى العالمين.

وسرية الدعوة لم تكن خوفا وجبنا كما قد يُظن، بل كانت ضرورة واقعية وأمرا مصلحيا

---

[1] – البخاري، رقم 2753.

[2] – ابن كثير. تفسير القرآن العظيم، 316/2.

[3] – ابن هشام. السيرة النبوية. 448/1.

[4] – ابن هشام. السيرة النبوية. 448/1.

لنجاح الدعوة، فهي سرية تجهيز وإعداد، وبناء وتكوين.

3- الاعتراف بالسلطات الحاكمة، والتعامل معها كواقع لا يمكن تجاوزه أو إلغاؤه، فلم يدعو ﷺ إلى انتزاع سلطات قريش أو منازعتهم عليها، فرسالته تعبيد الناس لله تعالى توحيدا وتعظيما أولاً، قبل أن تكون أحكاما وقوانينا تضبط حياتهم وتنظم تعاملاتهم فيما بينهم ومع غيرهم.

وكان غاية ما يرجوه من قومه وعشيرته في العهد المكي:

- أن يؤمنوا بالله وحده،"أيها الناس قولوا: لا إله إلا الله تفلحوا،"[1]، وهو نفس طلبه من سادة القبائل الذين كان يلتقيهم:"يا بني فلان، إني رسول الله إليكم، يأمركم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا، وأن تخلعوا ما تعبدون من دونه من هذه الأنداد، وأن تؤمنوا بي، وتصدقوا بي، وتمنعوني، حتى أبين عن الله ما بعثني به"[2].
- وأن يحولوا بينه وبين تبليغ ما أُمر بتبليغه:"يا ويح قريش، لقد أكلتهم الحرب، ماذا عليهم لو خلوا بيني وبين سائر الناس، فإن أصابوني كان الذي أرادوا، وإن أظهرني الله عليهم دخلوا في الإسلام وهم وافرون، وإن لم يفعلوا، قاتلوا وبهم قوة"[3]، فحصر ما يريده منهم في قبول دعوة الله تعالى، وتوفير الحماية له، ليتمكن من تبليغ ما أمره الله بتبليغه، فبيئة تعاقب عليها الشرك والطغيان قرونا من الزمن حتى صدأت عقول أهلها، تحتاج أن تفسح المجال لسماع مراد الله تعالى وهديه ابتداءاً.

4- إتّباع سياسة النفَس الطويل، واستراتيجية الصبر الجميل، فلم يستعجل ﷺ على تحقيق الهدف قبل أن يستكمل استحقاقاته، منفذا أمر الله تعالى له ولمن معه بالصبر والتحمل ومواصلة السير، قال تعالى: **{فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ }**[الروم:60]، وقد كان ذلك؛ ففي الوقت الذي كانت الدعوة واقعة تحت سياط السب والسخرية، ومقامع الإيذاء والتعذيب، كانت تمضي في ثبات وتنمو يوما بعد آخر، والنبي من معه صابرون ثابتون، تحمّل النبي وأصحابه صنوف الإيذاء والتعذيب، دون أن ينل ذلك من صبره أو عزيمته، يقول خباب بن الأرت: شكونا إلى رسول الله ﷺ وهو متوسد بردة له في ظل

[1] – ابن أبي شبة. مسند ابن أبي شيبة، رقم 822.

[2] – ابن هشام. السيرة النبوية. 423/1

[3] – أحمد، مسند الإمام أحمد. رقم /18910.

الكعبة فقلنا: ألا تستنصر لنا ألا تدعو لنا؟ فقال: "قد كان من قبلكم، يؤخذ الرجل فيحفر له في الأرض، فيجعل فيها، فيجاء بالمنشار فيوضع على رأسه فيجعل نصفين، ويمشط بأمشاط الحديد، ما دون لحمه وعظمه، فما يصده ذلك عن دينه، والله ليتمنّ هذا الأمر، حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت، لا يخاف إلا الله، والذئب على غنمه، ولكنكم تستعجلون"[1].

بل كان ﷺ وأصحابه يسجدون لله رب العالمين جوار بيت الله الحرام –والأصنام تحيطه إحاطة السوار بالمعصم– فلم يحركها من أماكنها، أو دعا أصحابه لتحطيمها في ذلك الوقت، حتى جاء اليوم الذي تُكسر فيه دون أن يُعترض عليه ولو بكلمة.

5- الاستعانة بمراكز القوة والنفوذ داخل البيئة القرشية وقت اشتداد التآمر والتضييق، فما خلت المجتمعات أبدا من أولوا بقية يحملون قدرا من الحس الإنساني المراعي لحق الجوار ونصرة المظلوم، ففي سنوات الدعوة الأولى كان سنده صلوات الله عليه في تبليغ دعوة الله عمه أبو طالب، الذي أُطلق على عام وفاته، عام الحزن[2]، وحين أجمعت قريش على محاصرة النبي ومن معه اقتصاديا ومعيشيا، اصطف بنو هاشم إلى جوار النبي، وتحملوا معه تبعات ذلك الحصار الجائر[3].

وحدث أن خرج ﷺ إلى ثقيف لدعوتهم إلى الله تعالى راجياً أن تكون ثقيف غير مكة، وأن يجد من أهلها نصرة لله ورسوله، فلما أقفل راجعا بعد شدة ما وجده منهم، حدث أمر جلل وهو في طريق عودته إلى مكة، فقد علم أن سلطة قريش اتخذت قرارا جائرا يقضي بمنعه عليه السلام من العودة إلى وطنه وبيته؛ فلم يجد أمامه من خيار سوى الاستعانة بمن له قوة ومنعة في قريش، فأرسل وهو خارج مكة في جهة حراء إلى من يجيره من سادة قريش، كي يتمكن من دخول بيته، فبين معتذر وممتنع، "فبعث إلى الأخنس بن شريق ليجيره، فقال:أنا حليف، والحليف لا يجير. فبعث إلى سهيل بن عمرو، فقال: إن بني عامر لا تجير على بني كعب. فبعث إلى المطعم بن عدي فأجابه إلى ذلك، ثم تسلّح المطعم وأهل

[1] – البخاري، رقم/ 6943.

[2] – هو العام الذي توفي فيه عمه أبو طالب وزوجته خديجة رضي الله عنها.

[3] – ينظر: الراشدي. ياسر. المعارضة السياسية للنبي في العهدين المكي والمدني، ص،30.

بيته، وخرجوا حتى أتوا المسجد، ثم بعث إلى رسول الله ﷺ أن ادخل، فدخل رسول الله، فطاف بالبيت وصلى عنده، ثم انصرف إلى منزله[1].

6- التسامي على المغريات والتمسك بالمبدأ، فثبات القائد عند المغريات والمغانم أقوى من ألف خطبة وكلمة، وهو وسيلة فاعلة لتعزيز الإيمان بذلك المبدأ في نفوس الأتباع، فقد عُرض على النبي ﷺ عروضا أقل ما يمكن وصفها بأنها مغريات كبرى، مال، ونساء وملك[2]، منطلقين في هذا العرض من طبيعة تصورهم الخاطئ بأن النبي يبحث عن دنيا أو مجد زائل، فكان رده عليه السلام حازما في قوة وثبات.

أعلنها مدوية حين حاول عمه وسنده أبو طالب التأثير عليه للقبول بها: "والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله، أو أهلك فيه، ما تركته"[3]، فلا مجال هنا للمجاملة أو المساومة، فالعروض التي تستهدف مشروع الرسالة يتوجب رفضها والثبات في وجهها.

7- إتباع إستراتيجية التوسّع المتدرج، فبدأ بأقرب الدوائر المحيطة به، حتى يتمكن من الانطلاق وهو يجد فهما وتقديرا وإدراكا لما يقوم به مصحوبا بالدعم والإعانة، وكان من الطبيعي أن يبدأ بدعوة أهل بيته، وأقرب المقربين إليه، ولا أقرب من رفيقة دربه وشريكة حياته زوجته أم المؤمنين خديجة رضي الله عنها التي كانت له نعم العون والسند، ثم خادمه زيد بن حارثه، ثم صديقه الصدّيق، ثم ابن عمه علي، هؤلاء كانوا أول طلائع المستجيبين لدعوته.

ثم توجه نحو دائرة الأقارب، عملا بقول الله تعالى: {وأنذر عشيرتك الأقربين}، وبعد ثلاث سنوات من سرية العمل والدعوة، أعلنها لأهل مكة من على جبل الصفاء: "إِنِّي نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ"[4]، ثم انطلق بعد ذلك في دعوة الناس، حتى بلغت دعوته العالمين.

---

[1] – ينظر: ابن هشام،381/1. ولم ينس النبي صلى الله عليه وسلم ذلك الصنيع من المطعم بن عدي، فقال يوم بدر بعد انتصاره على قريش:" «لَوْ كَانَ المُطْعِمُ بْنُ عَدِيٍّ حَيًّا، ثُمَّ كَلَّمَنِي فِي هَؤُلاَءِ النَّتْنَى لَتَرَكْتُهُمْ لَهُ»(البخاري، رقم/ 3139).

[2] – ابن هشام، 293/1-294.

[3] – هشام، 226/1.

[4] – السهيلي. الروض الأنف، 297/3

8- العمل على حماية القاعدة الصلبة للدعوة من عواصف المواجهات وتآمر الخصوم، فسنوات الدعوة الأولى كانت حصيلتها محدودة، فعشرات من الأفراد فقط هم الذين آمنوا بالإسلام وتحملوا في سبيله ألوان الإيذاء وصنوف التعذيب، ولقي البعض حتفه في سبيله الله تعالى، كسمية رضي الله عنها، فكان لا بد من عمل يحافظ به القائد على هذه الكوادر ويحميها، ريثما تتبدل الظروف وتتحسن، فهم قاعدة الدعوة وحصيلة السنوات، وتركهم بين مخالب سادة قريش يعني استهدافهم في أنفسهم بالقتل أو السجن والتعذيب، لذلك اتخذ النبي عليه السلام قرارا بإخراجهم من بيئة البطش القرشية حفاظا على سلامتهم، وأرسلهم إلى الحبشة في جوار ملك لا يظلم عنده أحد- كما وصفه النبي صلوات الله عليه-، وأثبتت الأيام عظمة تلك الخطة وصوابيتها، فقد استمروا في الحبشة في أمن وسلامة سالمين في دينهم وأنفسهم، حتى عادوا ظافرين إلى دولة المدينة، ليساهموا بعدها في حمل راية الإسلام إلى الآفاق.

9- البحث عن بيئة ملائمة لنجاح مشروع الدعوة، فمعطيات الوضع المكي تقول بأنه وضع لا يناسب انتشار الدعوة ولا بناء الدولة، وليس من الحكمة لحملة المشاريع الاستسلام لواقع الظلم والاضطهاد إلى ما لا نهاية، أو إلى أن يؤتى على المشروع من قواعده، فأرض الله واسعة، فيها مراغماً كثيرا وسعة.

كما كان واضحا عنده ﷺ أن الحبشة -التي أرسل أصحابه إليها- لا تصلح أن تكون منطلقا للدعوة، كي يهاجر هو إليها، لذلك استمر البحث عن بيئة صالحة للانطلاق بمشروع الدعوة وحمايتها داخل الجزيرة العربية، واستمر يعرض نفسه على وفود القبائل في مواسم الحج وغيره بحثا عن البيئة الصالحة والناصر القوي، يقول جابر: مكث رسول الله ﷺ بمكة عشر سنين يتبع الناس في منازلهم بعكاظ ومجنة وفي المواسم بمنى، يقول:"من يؤويني، من ينصرني، حتى أبلغ رسالة ربي وله الجنة؟"[1]، حتى وجد المناصرين الأشداء، والأرض الصالحة لنمو الدين وانتشاره في يثرب، فأرسل أصحابه إليها، ثم هاجر هو، بعد أن استكمل التخطيط والإعداد لذلك.

[1] – النيسابوري. شرف المصطفى، 123/2.

ثالثا: ثمار واقعية التعامل في العهد المكي: كان لواقعية تعامل النبي ﷺ في العهد المكي ثمار وفوائد عظيمة، على الدعوة وعلى جماعة المسلمين، ومنها:

1- المحافظة على كيان الجماعة المسلمة، بتجنب الدخول في مواجهة مبكرة مع سلطات قريش قد تؤدي إلى وأد الجماعة في مهدها.

2- التمكّن من التوسّع الأفقي بالانتشار بين الناس وإيصال الدعوة إلى أكبر قدر في مكة وما حولها، من خلال الأسواق ومواسم الحج.

3- استغلال اللحظة للبناء الرأسي لقيادات وكوادر الدعوة من الرعيل الأول، بناء روحيا إيمانيا عميقا، مصحوبا ببرنامج عملي في تحمل المصاعب والمحن، ومواجهتها بصبر وثبات؛ لتأهيلهم لحمل الدعوة وتبليغها إلى العالمين.

4- فرض دعوة الإسلام حتى كانت واقعا على الأرض في قريش وما حولها من القبائل، لا يمكن تجاوزه في فترة وجيزة، بفضل صبره وسلميته ﷺ.

5- أسس ذلك العهد لجملةٍ من القواعد والقيم الأخلاقية للتعامل مع الخصم، في مختلف الظروف والأحوال.

6- التمكن من استكمال الإعداد للانتقال من بيئة الدعوة إلى بيئة الدولة، والتي أخذ الإعداد لها ثلاثة عشر عاما.

رابعا: الهجرة والتحول التاريخي:كانت البداية الفعلية للعهد المدني الذي استغرق تسعة أعوام وتسعة أشهر، هي تلك الخطوة التاريخية الممهدة لهجرة النبي ﷺ، وذلك حين اقتنع بضعة عشر من شباب يثرب بدعوة الإسلام في موسم الحج عام 621م "بيعة العقبة الأولى"، ثم جاء حج العام القادم 622م وأصبح عدد من حضر لمبايعة النبي ﷺ من الأوس والخزرج ثلاثة وسبعون رجلا وامرأتان، بايعوه على مبدأ النصرة والتأييد، فانطلق بذلك عهد جديد من الدعوة يتشكّل يوما بعد آخر، وبدأ التحوّل الذي كان يأمله النبي ﷺ بوجود الحاضنة المناصرة لدين الله والحامية لرسول الله؛ ليبلغ دين الله إلى العالمين.

كان وصول النبي ﷺ إلى المدينة إعلانا للعهد الجديد في مسيرة الدعوة، فهاهو يُستقبل بحفاوة لا يعرف لها التاريخ مثيل، وصل المدينة وجلّ أهلها قد دخلوا في دين الله تعالى[1]، بعد أن كان ومن معه أقلية مطاردة مشردة في مكة.

وصل المدينة فبدأ في تحقيق حلم إيجاد البيئة الصالحة التي ينطلق منها مبلغا دين الله نحو مشارق الأرض ومغاربها، بحرية تامة وسيادة كاملة.

كانت التركيبة السكانية اليثربية تتكون من عشيرتي الأوس والخزرج إضافة إلى ثلاثة تجمعات يهودية (بني قريظة، وبني قينقاع، وبني النظير)، وعشائر أخرى، ويحيط بالمدينة قبائل ودول وقوى متعددة، لها حضور فاعل، وأهمها:

- قريش حاملة راية الحرب على رسول الله ودعوته، وما جاورها من القبائل العربية، وهي بمجموعها تشكل ما يعرف تاريخيا بجزيرة العرب.
- اليمن الدولة القاطنة في جنوب الجزيرة العربية، دولة ذات جذور تاريخية ومقومات حضارية؛ إلا أن المركز بصنعاء وما حوله كان يتبع الفرس إبان بعثة النبي ﷺ، بينما بقية المناطق والقبائل المنتشرة في عموم اليمن تشكل إمارات وممالك مستقلة.
- بلاد الشام بإماراتها ودولها المتعدد، وكانت حينها مزيجا من الكيانات والممالك المحلية، بعضا منها ذات ولاء للدولة الرومانية خاصة الغسساسنة.
- البحرين منطقة شرق الجزيرة العربية وكانت ذات ولاء فارسي.
- العراق بلاد الرافدين الحيرة وما حولها، وهي مناطق المناذرة ومن جاورهم من القبائل العربية وكانت تدين بالولاء لفارس.
- على المستوى الدولي: فأهم دولتين كان لهما حضور وتأثير، هما : دولتا فارس المجوسية والروم المسيحية.

هذه التركيبة المتشابكة حول المدينة بتوجهاتها ومصالحها استوجبت آليات وأدوات ملائمة ومختلفة عن تعامل وسياسة العهد المكي ،كما سنرى.

[1] – ينظر: ابن هشام. السيرة النبوية. 437/1.

خامسا: مظاهر الواقعية السياسية وثمارها في العهد المدني: كانت الهجرة النبوية انتقال من حال إلى حال، انتقال من الأقلية إلى الأكثرية، ومن الضعف إلى القوة، ومن تقييد الحرية إلى الفضاء الرحب للحركة والدعوة، وصل النبي ﷺ إلى المدينة وقد سبقته جموع الأتباع، وأصبحت يثرب "التي أصبحت المدينة المنورة"مكتظة بسكانها الأصليين وبمن وفد إليها من المهاجرين و المسلمين يشكلون العمود الفقري لمجتمع المدينة، لكنها متعددة الأديان والعرقيات والعشائر، محاطة بقبائل ودول متعددة –كما أسلفنا– وهذه أمور أُستوجب أخذها بعين الاعتبار في تأسيس المجتمع الجديد والدولة الوليدة، فالواقع الجديد يستلزم طرقا مختلفة للتعامل في نشر الدعوة وبناء الدولة، ولذا، فقد تطورت السياسات النبوية عمّا كانت عليه بمكة، وكانت أبرز ملامح خطوات وسياسات العهد الجديد ما يلي:

1- إيجاد مقرا دائما ومعلنا لقيادة الدولة الجديدة والاجتماع بالناس، فالمجتمع المدني صار إسلاميا بالعموم، ولم يعودوا مجموعة أفراد يختفون في دار الأرقم كما كانوا بمكة، فلا بد من مكان يلتقي الناس بقيادتهم لتسمع همومهم وتحل قضاياهم، ويكون في ذات الوقت منطلقا للبناء الروحي والاجتماعي، فرسالة الإسلام دعوة ودولة، والمسجد آنذاك خير وسيلة تجمع بين المهمتين، فكان بناء المسجد أولى خطواته ﷺ في العهد الجديد، جعل منه مقراً يعقد فيه مجلس الحكم، والقضاء، ومجلس شورى، ومكان استقبال الوفود، ومكان العلم والتعليم، وملتقى المسلمين، يبحثون فيه شؤونهم وقضاياهم، فضلاً عن وظيفته الأساسية التي هي الصلاة وبناء الروح.

2- وضع أسس التلاحم المجتمعي وسد الفجوة المعيشية، فنزول جموع المهاجرين الكبيرة المدينة شكّل عامل ضغط اجتماعي ومعيشي كبير، وهو ما يقتضي حلا عاجلا وحكيما، يذيب العرقيات، ويعالج الضغط الكبير على الموارد الاقتصادية والاحتياجات الغذائية ؛ فكانت الخطوة الحكيمة بالمؤاخاة التاريخية بين المهاجرين والأنصار، التي تُعد عملا فريدا في التاريخ الإنساني.

فقد خرج القائد وأتباعه بأنفسهم تاركين ما يملكون وراء ظهورهم فرارا بدينهم، وليس لديه صلى الله عليه وسلم ما يغطي احتياجاتهم، فكانت المؤاخاة بينهم وبين الأنصار الحل الأمثل لسد الفجوة المعيشية للمهاجرين الذين تركوا أموالهم في مكة، ولقد شكّل فريقا المهاجرين

والأنصار ثنائياً فريدا في التاريخ الإنساني، فقد وجد المهاجرون في إخوانهم الأنصار نعم المعين على تجاوز شدة ترك المال فرارا بدين الله تعالى، حتى أن التوارث في صدر العهد المدني قام على أساس هذه المؤاخاة، فلما سُدت الفجوة المعيشية واستقر الوضع، أعاد النبي التوارث على أساس القرابة الأسرية.

وكان من ثمار هذه الأخوة القائمة على رابطة العقيدة توحيد النسيج الاجتماعي المدني وإذابة كل العصبيات، بما فيها التعصب اليثربي"أوس وخزرج" الذي طحن كواهلهم عقودا من الزمن، وكاد يفني نسلهم بالحروب العبثية بينهم، فأنقذهم الله بدين الحق ورسالة الإسلام.

3- إيجاد آلية منظمة للعلاقة بين مختلف مكونات المجتمع المدني، تحمي الحقوق والحريات وتحفظ أمن الدولة الداخلي، فمجتمع ناشئ متعدد الديانات لا بد له من عقد اجتماعي وقانون ينظم شؤونه ومصالح سكانه، و"يبني شراكة مع مختلف قطاعات المجتمع الداخلي"[1]؛ لذلك صاغ النبي وثيقة جامعة نظّمت علاقة جميع الأطراف ببعضها، وعلاقات تلك الأطراف به، كما حددت الوثيقة المرجع عند تباين وجهات النظر، ونصت على أن أي خلاف ينشب بين أطراف العقد فإن الحكم فيه لرسول الله ﷺ بوصفه رئيساً لدولة المدنية[2]؛ فقامت العلاقات على أسس قوية وواضحة، اطمأن النبي من خلالها على سلامة السير في بناء المجتمع السياسي.

4- العمل على امتلاك المشروعية السياسية، فلئن كانت الغلبة العددية من المهاجرين والأنصار، وكذلك النوعية بعد إسلام جل قادة الأوس والخزرج وفي مقدمتهم السعدين[3]، إلا أنه ﷺ لم يمنح نفسه حق قيادة الدولة الجديدة والمضي بها نحو أهدافها بحكم هذا الواقع-رغم أن له ذلك؛ فهو حامل مشعل الرسالة الخالدة، وقائد مشروع دولتها-، بل جعل الأمر اختياريا لسكان المجتمع الجديد، فلو افترضنا تسليم المسلمون بذلك بحكم ولاء العقيدة والدين، فإن اليهود ومن بقي على شركه من العرب شركاء في تراب وطن المدينة وليس في دينها، فلا

[1] – منيب، عبد المنعم 2015، ملامح سياسية واستراتيجية من السيرة النبوية، موقع الألوكة.

[2] – ينظر: نص الوثيقة، ابن هشام، 1/401-504.

[3] – سعد بن معاذ سيد الأوس، وسعد بن عبادة سيد الخزرج.

بد من أخذ رأيهم وتوفر رأي الأغلبية، فحاورهم المصطفى عليه السلام وأفضى الحوار معهم إلى تسليم قيادة دولة المدينة للنبي صلوات الله وسلامه عليه، عن رضا وقناعة، كما نصت عليه الوثيقة [1].

5- العمل على الاستقلال الاقتصادي، فمن لا يملك قوته لا يملك قراره، هكذا نظر النبي صلوات الله عليه إلى واقع المدينة، فاقتصاد الأنصار بيد اليهود الذين يتحكمون في الأسواق ويسيطرون عليها، وأموال المهاجرين سلبتها قريش وتتحكم في جلّ التجارة، لذلك جعل ﷺ التحرر الاقتصادي أولوية هامة، فأنشأ سوقا خاصا بالمسلمين في المدينة؛ ليتحرروا من هيمنة اليهود الاقتصادية، فذهب إلى جوار سوق بني قينقاع، وضرب خيمة كبيرة لتكون معلما يتجمع حوله المسلمون للبيع والشراء، فأغتاظ اليهود من ذلك، وقام زعيم اليهود كعب بن الأشرف بهدم تلك الخيمة وقطع أطنابها، ولكن الرسول ﷺ لم يجعل هذا التصرف عائقا لمشروع التحرر الاقتصادي أو سببا لزعزعة استقرار الدولة الوليدة، فقال:" والله لأضربن لهم سوقاً هو أغيظ له من هذا "، وفي رواية أخري: " لأنقلنها إلى موضع هو أغيظ له من هذا"[2]، فبحث عن موضع مناسب وضرب فيه برجله، وقال:"هذا سوقكم، فلا يُنْتَقَصَنَّ، ولا يُضربنّ عليه خراج"[3]، ثم قام بمحاولة استرداد بعض الأموال المنهوبة لدى قريش، كما حدث في بدر وبعض السرايا.

6- تنويع التعامل مع الأحداث والبيئات بحسب ما تقتضيه مصلحة الدعوة والأمة، تعاملا مبنيا على معرفة دقيقة بطبيعة الحدث وواقع المعنيين، حتى إنه ﷺ كان يرجع في معرفة القبائل لأبي بكر الصديق رضي الله عنه الذي كان من كبار نسّابي العرب.

فكان تعامُله ﷺ مع قريش غير تعامله مع القبائل الأخرى، فقريش التي تمادت في الحرب على دين الله تحتاج إلى الصرامة والحزم، بينما غيرها تحتاج إلى الرفق والتيسير والتأليف، وتعامله مع اليهود غير تعامله مع جماعة ابن سلول، فقد وصل المدينة والأوس والخزرج خارجون من حرب بُعاث الأليمة، وعلى مشارف صلح سيفضي إلى تتويج

[1] – ينظر: نص الوثيقة، ابن هشام، 1/401-504.

[2] – ينظر: المقريزي. إمتاع الأسماع، 9/362-363.

[3] – ابن ماجة. سنن ابن ماجة، رقم/2233.

عبدالله بن أبّي بن سلول حاكما على يثرب، فكان ﷺ يحتمل أذى وعداوة ابن سلول لهذا، بعكس اليهود الذين كانوا أدوات شر وناقضي عهود ومؤججي الفتن والصراعات سابقا ولاحقا، فحزم الأمر معهم عند أولى محطات النكث والغدر.

فكان ﷺ يراعي في كل حالة طبيعة الحال، وما تؤول إليه الأمور في خدمة الدين والأمة.

7- توظيف الواقع سلما وحربا توظيفا حكيما، فالغزوات وإرسال السرايا لتثبيت أمن وحماية الدولة الوليدة من الطامعين والمارقين المعتدين، وحالات الهدنة والسلم لإفساح المجال لنشر الدعوة وتبليغها إلى العالمين، كما في صلح الحديبية رغم أن مدة الصلح لم تتجاوز سنتين من هدنة العشر السنوات المتفق عليها، إلا أنها كانت فرصة أمّن فيها النبي ﷺ جبهة العدو التقليدية"قريش"، وتفرغ لمراسلة ودعوة القبائل والدول المحيطة بالمدينة.

8- انتهاج العمل الدبلوماسي الواسع، فبعد تأمين دولة المدينة، صار لها حضورها الفعال في محيطها الصغير، فشرع بنشر دعوة الحق في العمق الإقليمي والدولي، وبدأ بمراسلة قادة القبائل والدول، كُلاً بما يتوافق مع منصبه ولقبة ومكانته، يدعوهم إلى دين الله تعالى، دين الحق والسلام، وما فيه من خير يعود على بلدانهم ومجتمعاتهم، ومحذرا من مغبة وعواقب الصدّ عن دين الله تعالى، ولم يكن في رسائله عليه الصلاة والسلام تخّيير لهم بين إسلام أو الجزية أو القتال، فهي أول رسائله إليهم، بل كانت رسائل إعلام لهم بالدعوة وتعريف بالدين الجديد، وإيصال صوت الحق إلى قيادة وملوك تلك البلدان، لعل الله يقذف نور الهداية في قلوبهم، أو تقام عليهم الحجة.

9- الحزم عند ورود مقتضاه، فيوم أن نكثت قريش بعهدها الذي تم في الحديبية، وتمالأت على حلفاء النبي من خزاعة، لم يتأخر ﷺ أو يتردد أو يقبل بوساطة وهدنة، بل انطلق بجيشه العظيم ليكسر شوكة العدو التاريخي، ويرفع هيمنة قريش على بيت الله الحرام، فقد ولى زمن الاستضعاف والقهر، فهو اليوم في موقع القادر على رفع الظلم وإقامة ميزان العدل، فدولة المدينة هي الأعلى والأقوى، وأيّ تأخر يُعد تراجعا عن التقدم الذي قطعه من البناء الداخلي والمكانة الخارجية، وكانت نتيجة حزمه ذلك الفتح العظيم" فتح مكة"، الذي تطهّر بسببه بيت الله من رجس الأوثان والأصنام، ورفعت قريش يدها عن بيت الله مسلّمة مستسلمة، والمسلمون في قوة ومنعة، ولهم العزة والقدح المعلى، ومع تلك القوة والتمكين

راعى النبي ﷺ حق الرحم مع قومه وعشيرته، فأعلن العفو العام، طياً لصفحة العداء التاريخي، وحفظ لقريش مكانتها" اليوم يوم المرحمة، اليوم أعز الله فيه قريشا"[1]، حتى أنه اصطحب معه قادة قريش إلى مواجهة غطفان، وما زال بعضهم على كفره، وأعطاهم العطاء الكثير من غنائمها تأليفا لقلوبهم، وهكذا حزم الأمر، وأنهى عداوة تاريخية استمرت عقدين من الزمن، وكسب القلوب وتألفها بحسن تصرفاته الحكيمة صلوات الله وسلامه عليه.

10- الانطلاق نحو العالمية بعد أن انتظمت الأوضاع الداخلية وتهيأت الظروف الإقليمية، فإنه بعد فتح مكة وانكسار غطفان وحلفائها يوم حنين أصبحت الدولة الإسلامية هي القوة الكبرى في الجزيرة العربية، وتمثل قوة دولية تنافس بمنهج الحق والعدل هيمنة دول الظلم والبغي فارس والروم، انطلق النبي ﷺ نحو العالمية بعد أن قام بواجب البلاغ والإنذار، وشيّد مجتمعاً متماسكاً، وبنى القوة العسكرية الكافية، خلال فترة وجيزة، فتحولت الجزيرة من قبائل متناحرة إلى دولة منظمة مؤثرة.

انتقلت دولة الإسلام بعد ذلك إلى مرحلة ردع الباغي ونصرة المظلومين والدفاع عن المضطهدين في الأرض، ولإفساح الطريق أمام دعوة الله لتبلغ العالمين بقناعة وحرية تامة، دون إجبار أو إكراه، رافضة في الوقت ذاته تسلّط وتأله الآخرين على خلق الله تعالى.

اتجه المسلمون بدعوتهم شرقا وغربا وشمالا وجنوبا، فتتابعت القبائل والدول للانضواء تحت راية التوحيد واحدة تلو أخرى، حتى شملت الجزيرة العربية، وبدأت تقرع أبواب دولتي فارس والروم.

وقد لعبت الأوضاع الداخلية للمجتمعات البشرية – نتيجة تفكك النسيج الاجتماعي فيها بسبب ظلم السلطات والأديان المحرفة– دورا هاما في سرعة انتشار الإسلام، فغيّرت فتوحات المسلمين ملامح العالم الدينية والأخلاقية والثقافية،كما غيّرت فلسفة العلاقات بالآخر من منطق المصلحة والاستبداد إلى منطق الدعوة والأخوة والإنسانية، وتشكلت ملامح خارطة سياسية جديدة للعالم، أبرز ملامحها كالآتي:

[1] –الواقدي، المغازي.822/2.

1- قيام دولة جديدة على مساحات شاسعة من العالم القديم هي الدولة الإسلامية.
2- تراجع وانحسار إمبراطوريتي الفرس والروم، وانتهاء عصر هيمنتهما.
3- شكّل العرب رأس الحربة في الفعل الإنساني والحدث العالمي، بعد أن كانوا في مؤخرة الركب.

كان هذا التحول الكبير –الذي كسا وجه العالم بحلةً بهيةً من قيم الحق والعدل والإنسانية– بفضل حكمة النبي ﷺ وواقعية تعامله السياسي، وسياسته الواقعية.

واقعية أثمرت سلامةً في سير الدعوة إلى الله تعالى، وسلاسةً في بناء المجتمع المسلم، وصولا إلى قيام الدولة القوية القادرة على تحقيق قيم الحق والعدل في الأرض، وحمل راية دين الله إلى العالمين، تحقيقا لقول الحق: {**وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ**}[الأنعام:107].

قائمة المراجع :

1- ابن أبي شيبة، عبد الله بن محمد العبسي. (1997). *مسند ابن أبي شيبة*. الطبعة: الأولى. تحقيق: عادل بن يوسف العزازي، وأحمد بن فريد المزيدي. السعودية. الرياض: دار الوطن.
2- ابن حنبل. أحمد. (2001). *مسند الإمام أحمد بن حنبل*. تحقيق: شعيب الأرنؤوط، وآخرون. لبنان: مؤسسة الرسالة.
3- ابن كثير. أبو الفداء إسماعيل بن عمر.(1419هـ). تفسير القرآن العظيم. الطبعة: الأولى. لبنان: دار الكتب العلمية.
4- ابن ماجه. أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني.(1372هـ/ 1952م). *سنن ابن ماجه*. تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي. مصر. دار إحياء الكتب العربية.
5- ابن هشام. عبد الملك. (1955). *السيرة النبوية*، تحقيق السقا. مصر: شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي.
6- البخاري. محمد بن إسماعيل.(1422هـ). *الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله صلى الله عليه وسلم وسننه وأيامه"صحيح البخاري"*. الطبعة: الأولى. لبنان. بيروت: دار طوق النجاة.

7- الجوفان. جميلة بنت محمد الجوفان،(2009) الواقعية، نظرة عن قرب. https://www.alukah.net/literature_language/0/5427 .

8- خان، صديق حسن. (1987). *أبجد العلوم*. الطبعة: الأولى. لبنان. بيروت: دار الكتب العلمية.

9- الراشدي. ياسر. *المعارضة السياسية للنبي في العهدين المكي والمدني*، مجلة البحوث والدراسات الإسلامية. العدد 44.

10- رضا. محمد رشيد بن علي. (1990)، *تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار)*. مصر. القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب.

11- السهيلي. أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله بن أحمد(1412هـ). *الروض الأنف في شرح السيرة النبوية*. الطبعة: الأولى. لبنان: دار إحياء التراث العربي.

12- صافي. لؤي. (2001). *العقيدة والسياسة "معالم نظرية عامة للدولة الإسلامية"*. الطبعة: الأولى. لبنان. بيروت: دار الفكر المعاصر.

13- علي. جواد علي. (2001). *المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام*. الطبعة: الرابعة. لبنان. بيروت: دار الساقي.

14- المقريزي. أحمد بن علي بن عبد القادر.(1999). *إمتاع الأسماع بما للنبي من الأحوال والأموال والحفدة والمتاع*. الطبعة: الأولى. لبنان. بيروت: دار الكتب العلمية.

15- المقريزي.أحمد بن علي بن عبد القادر.(1418هـ). *المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار*. الطبعة: الأولى. لبنان. بيروت: دار الكتب العلمية.

16- منيب، عبد المنعم 2015، *ملامح سياسية واستراتيجية من السيرة النبوية*، موقع الألوكة. https://ar.islamway.net/article/49594.

17- النيسابوري. عبد الملك بن محمد بن إبراهيم الخركوشي.(1424هـ) *شرف المصطفى*. الطبعة: الأولى. السعودية: دار البشائر الإسلامية.

18- الواقدي. محمد بن عمر بن واقد السهمي الأسلمي (1989/1409). *المغازي*. الطبعة: الثالثة تحقيق: مارسدن جونس. لبنان: دار الأعلمي.